

توظيف علم اللسانيات في التفسير القرآني

The Employment of Linguistics in Quranic Interpretation

د/ محمد نذير أوسالم

Mohamed Nadhir OUSSALEM

طالب دكتوراه أسامة رميلاوي¹

Oussama REMILAOUI

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية - جامعة وهران 1

مخبر الدراسات القرآنية والمقاصدية

oussalem.mohamed@univ-oran1.dz

remilaoui.oussama@edu.univ-oran1.dz

تاريخ القبول: 2025/01/29

تاريخ الإرسال: 2024/03/14

الملخص:

أثارت قضية تطبيق علم اللسانيات المعاصرة على تفسير آيات وسور القرآن الكريم جدلاً كبيراً في الساحة المعرفية عند المسلمين بين مجيز قابل لها وبين رافض ممتنع لتوظيفها، ومع هذا الجدل الكبير إلا أن ذلك لم يمنع ذلك من توظيفها من طرف عدة باحثين ومفكرين تنوعت أيديولوجياتهم واختلفت مشاربهم الفكرية وأصولهم المنهجية، ورأوا بأن لها فائدة كبيرة في الوصول إلى تفسير كلام الله وفهم معانيه، وبسبب هذه الصراعات الفكرية والتضاربات في الأقوال والآراء حول استخدام هذا المنهج تم التعرض لهذا الموضوع بالبحث والكتابة. تهدف هذه الدراسة إلى تبسيط حقيقة علم اللسانيات وبيان حكم توظيفها على التفسير القرآني مع إبراز الضوابط التي يجب أن تلتزم في هذا التوظيف.

الكلمات المفتاحية: قرآن؛ لسانيات؛ ضوابط؛ حكم.

Abstract:

The issue of applying contemporary linguistics to the interpretation of Quranic verses and surahs has sparked a great deal of controversy in the Muslim intellectual sphere. There are those who support this approach and those who strongly oppose it. Despite this controversy, several researchers and thinkers have employed linguistic methods in their interpretations of the Quran, believing that they can be highly beneficial in understanding the meaning of God's words. This research aims to explore this topic by simplifying the concept of linguistics, clarifying the permissibility of its application to Quranic interpretation, and outlining the guidelines that must be followed when doing so.

Key words: Quran; Restrictions; Ruling; Linguistics.

¹ - المؤلف المرسل

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

يعتبر تفسير القرآن الكريم من أهم العلوم الشرعية التي اهتم بها المسلمون في مختلف الأماكن وعبر مختلف الأزمنة والعصور، وذلك لما للقرآن الكريم من قيمة ومكانة كبيرة عندهم، ولما له من تدبيرٍ لشؤون حياتهم وضبطٍ لأفعالهم وسلوكهم، بل اعتنى بالتفسير القرآني كثير من المفكرين والباحثين من غير المسلمين، اهتموا ببيان معاني مفرداته وجمله وإعجاز آياته وسوره، هؤلاء المفكرون والباحثون اختلفت مذاهبهم وتنوعت طرقهم في الوصول إلى مبتغاهم، ولما كان القرآن الكريم بهذه القيمة ولكونه نزل بلسان عربي مبين، ثم لكونه صالحاً لكل زمان ومكان ظهرت عدة دعاوى لتوظيف مختلف المناهج المعاصرة في عملية التفسير، من المنهج التاريخي والأنثروبولوجي والتأويلي الهيرمينوطوق وغيرهم، ومن تلك المناهج التي دعي إلى الاعتماد عليها أيضاً المنهج الألسني الحديث أو ما يسمى بعلم اللسانيات المعاصرة خاصة من بعض الدارسين المشتغلين بالقراءة الحداثية للإسلام والمسلمين بكل مكوناته وأصنافه، ولما كانت أصل هاته الدعوى دعوى الحداثيين بالدرجة الأولى وكان هذا المنهج أحد المناهج التجريبية المعاصرة المستحدثة بعد قرون من تشكل العلوم الشرعية عامة وعلوم القرآن والتفسير خاصة تضاربت أقوال الباحثين والدارسين وتنوعت آرائهم في مدى مشروعية توظيف هذا المنهج الجديد على كلام الله القديم بين مؤيد ومعارض، وفي هذه الدراسة المتواضعة سنحاول التعرض لهذا الموضوع (موضوع توظيف اللسانيات المعاصرة في التفسير القرآني) وذلك من جهتين أساسيتين: الجهة الأولى في حكم توظيف هذا المنهج على التفسير القرآني وما مدى ذلك، والجهة الثانية في ضوابط التوظيف والاستثمار في هذا العلم لبيان معاني القرآن الكريم، مجيبين أساساً على الأسئلة التالية: ما حكم توظيف اللسانيات المعاصرة في التفسير القرآني؟ وما ضوابط هذا التوظيف؟

أهمية البحث:

أهمية البحث من أهمية مُتعلِّقه، ويكفيه شرفاً وأهمية تعلقه بالتفسير القرآني. كما تكمن أهميته في إبراز مدى توظيف اللسانيات واستثمارها في التفسير.

الدراسات السابقة:

تطرق جَمْع من الباحثين في دراسات سابقة ومقالات إلى موضوع توظيف اللسانيات على تفسير القرآن الكريم وضوابطها، إلا أنها كانت مجرد أقوال مبنوثة ومنشورة في سياق الكلام على الحداثيين أو كلامهم عن المناهج المعاصرة في التفسير، كطه عبد الرحمن في روح الحداثة، عدا الباحث زكريا عريف الذي كتب مقالة بعنوان: مشروعية توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم دراسة لأراء الراضين والمؤيدين، ركز فيه على نموذجين من نماذج توظيف اللسانيات (أركون، إيزوتسو)، ولم يتطرق لمسألة ضوابط التوظيف إلا في بضعة أسطر.

أهداف البحث:

- التعريف بعلم اللسانيات المعاصرة.
- حكم توظيف اللسانيات في التفسير القرآني وضوابط وتوظيف علم اللسانيات في التفسير.

المنهج المتبع:

تُنَبَّح في هذا العمل بدرجة أولى المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال وصف حقيقة اللسانيات وتبيينها للقارئ مع محاولة تبسيطها له، وكذا وصف حكم تطبيقها على القرآن الكريم ببيان أقوال الباحثين

والمفكرين في المسألة ثم تحليل هذه الأقوال والآراء ومحاولة الوصول إلى ضوابط توظيف علم اللسانيات في التفسير القرآني.

خطة العمل: تم تقسيم العمل إلى أساسية:

- 1- التعريف بعلم اللسانيات المعاصرة.
- 2- دعوة المفكرين إلى توظيف علم اللسانيات على التفسير القرآني وحكمها.
- 3- ضوابط توظيف علم اللسانيات في التفسير.

أولاً: التعريف بعلم اللسانيات المعاصرة

1. مفهوم علم اللسانيات وأهدافه:

تعرف اللسانيات بأنها الدراسة العلمية والموضوعية للغة ولسان البشري من خلال الألسنة الخاصة بكل قوم من أجلها ولذاتها، ودراسة تلك الظاهرة العامة والمشاركة بين بني البشر دراسةً وصفيةً علميةً بعيدةً عن الاعتبارات المعيارية الجانبية، مع تحليلها كما تكون عليه في الواقع لا كما يراد أن تكون مشاهدةً واستقراءً وإحصاءً بواسطة الوسائل والألات وبالتجارب وداخل المخابر، لتبنى نظريات وتستخلص قوانين تحكمها وتضبطها¹.

من خلال التعريف يمكن إجمال سمات اللسانية في النقاط التالية:

- دراسة اللغة ولسان البشري لذاته ومن أجله دراسة وصفية دون النظر إلى المعاني والدلالات.
- الدراسة العلمية الموضوعية: أي على الدراسة وفقاً للأسس والوسائل العلمية، كالملاحظة والاستقراء والوصف والتجربة، مع التجرد من الأهواء والميولات الشخصية والأحكام المعيارية المسبقة².
- أما عن أهداف علم اللسانيات فلا شك أن كل علم من العلوم تجريبية كانت أو إنسانية أو غيرها من مجالات العلوم إلا ويبتغى منها تحقيق أهدافٍ ووصولٍ إلى نتائج، وكذلك الحال ههنا مع علم اللسانيات الحديثة، ثم إذا نُظر إلى ما قرر في تعريف اللسانيات وبيان أبرز سماتها مع ما يذكره أرباب هذا الفن يمكن القول بأن أهداف علم اللسانيات تتمثل في النقاط التالية:
- دراسة اللغة دراسة وصفية تحليلية، من كل جوانبها المختلفة: الصوتية، الصرفية، النحوية، والدلالية، والمعجمية.
- اكتشاف أسرار اللغة من حيث هي ظاهرة إنسانية عامة، والوصول إلى خصائصها واستنتاج قواعدها التي تحكمها.
- وضع النظريات الشاملة في بنية اللغة وكيفية تحليلها إلى عناصرها أو استنباط دلائلها.

2. نشأة علم اللسانيات وتطوره:

يعتبر المفكر الفيلسوف اللغوي السويسري "فيردينارد دوسوسير الذي توفي سنة 1913م" مؤسس علم اللسانيات الحديثة، إذ كرّس كل حياته العلمية بحثاً وتدقيقاً وتحليلاً للغات ليصل إلى إدراكها ووضع قوانين تحكمها، والذي كانت آراءه في البحث اللساني مبسطة في محاضراته التي كان يلقيها على طلبته في الجامعة، الآراء والأفكار التي لم تنشر إلا بعد وفاته، والتي تم نشرها بفضل تلميذاه، اللذين قاما بجمع مادتها العلمية من مذكراته ومحاضراته التي كان يلقيها على الطلبة مع ما دونه طلبته من أفكار، وجمع كل ذلك وضّمّن في كتاب نُشر بعنوان "محاضرات في اللسانيات العامة"، الكتاب الذي عُده نهضةً وثورةً في الدراسات اللغوية الحديثة.

لكن ينبغي أن يعلم أن ما أنتجه "دوسوسير" من أفكار وما قعده من أصول معرفية لعلم اللسانيات لا يعني أن علم اللغة الحديث وليدٌ عهداً به، بل كانت جذوره ضاربة في التاريخ، شأنه شأن جل العلوم الأخرى، وذلك لارتباط علم اللسانيات باللسان البشري ولغة التواصل بينهم، الذي ليس وليد عهد قرن أو اثنين طبعاً بل هو موجودٌ وجودَ الإنسان، فمنذ عهد الهنود والإغريق عُرف البحث في الدراسات اللغوية، أين كانت لهم اهتمامات باللغة ومسائلها، كالبحث في العلاقة بين الدالِّ والمدلول وبحثهم في موضوع نشأة اللغة وتطورها، ثم استمر البحث مع اليونانيين وفلاسفتهم ومن جاء بعدهم من الصينيين والرومانيين، فتشكلت مدارس وتبلورت مذاهب زمنياً بعد زمنٍ في شتى الأماكن والبقاع، ولم يكن العرب والمسلمون في معزل عن هاته البحوث والدراسات، فأقصد كان لُحاثهم وعُلماؤهم فضل كبير في تشكل علم اللغة فبحثوا كخيرهم في الدلالة وكان لهم اهتمام شديد باللغة ووصفها ووضع قواعدها من النحو والصرف وعلم الأصوات وغيرها، كما اهتم علماء الشريعة خاصة علماء الأصول بالمسائل اللغوية وتحليل الخطاب، فساهموا في بيان الأنواع المختلفة من الدلالات مع بيان العلاقة بين الألفاظ والمعاني وكيفية تركيب الخطاب وبناءه، بهدف الوصول إلى فهم كلام الله وسنة نبيه ﷺ واستنباط أحكامهما، ومن علم التجويد المهتم بدراسة الأصوات والحروف من خلال مخارجها وصفاتها كيفية نطقها، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن "دوسوسير" قد استفاد كثيراً من كتابات العرب والمسلمين في البحث اللغوي، مما ساعده على تععيد هذا العلم الحديث وتأصيله فيما بعد³.

تطورت اللسانيات بعد "دوسوسير" ونشأت مدارس ومذاهب في مختلف الأماكن، فنشأت مدارس أوروبية وأمريكية، اختلفت عن بعضها البعض في المناهج المتبعة لدراسة اللغة وفي نظرتها إلى البحث اللغوي مع النتائج المتوصل إليها، وتفرعت عنها عدة علوم ونظريات مستقلة، فنشأت مثلاً المدرسة البنوية بـ "جنيف" والتي تبنت أقوال "دوسوسير" والمدرسة "اللدنية" التي تبنت الدراسة السياقية للغة مع المفكر "فيرث"، والمدرسة "الوظيفية بـ براغ" والتي اهتمت بالجانب الوظيفي للغة، ثم المدرسة "الأمريكية التحويلية التوليدية" مع "نعوم تشومسكي" الذي تأسس على أنقاض آراءه علم "النحو التوليدي"، وتشكلت علومٌ ألسنية عديدة، كـ "علم السميائيات" و"علم الفونيتيك (علم الأصوات)" وكذلك برز "علم الدلالة"، كما أثرت اللسانيات على الحقول المعرفية الأخرى فاستفادت منها وأفادتها فتأسست فيما بعد بما يسمى بـ "اللسانيات التطبيقية" والتي منها مثلاً: "اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات العصبية، واللسانيات الجغرافية، اللسانيات النفسية اللسانيات الطبية اللسانيات، اللسانيات التعليمية..."⁴.

3. مستويات التحليل اللساني:

تقدم الكلام على أن اللسانيات تهدف إلى تحليل اللغة البشرية تحليلاً وصفيًا ودراسة استقرائية من عدة جوانب، ولما كانت اللغة تتضمن مستويات مختلفة كان التحليل الألسني مسلطاً على هاته المستويات بالأساس وهي المستوى الصوتي المستوى الصرفي المستوى التركيبي أو النحو ثم المستوى الدلالي والمعجمي⁵.

أ- المستوى الصوتي: المستوى الصوتي ويسمى الفونولوجي، يقوم المستوى الفونولوجي على دراسة اللغة والاهتمام بالأصوات وإنتاجها في جهاز النطق، بالإضافة إلى خصائصها الفيزيائية، فيهتم هذا المستوى بالجانب الصوتي من اللغة، لا الجانب المكتوب، وذلك من خلال التعرض لمسائل مخارج الحروف وصفاتها، ومهمة المستوى اللساني الصوتي الفونولوجي حصر الأصوات اللغوية في أعداد معينة، وتصنيفها بعد إحصائها.

ب- المستوى الصرفي (المورفولوجي): يهتم المستوى اللساني الصرفي باشتقاق الكلمة وجذورها وتصريفها، وأساس هذا المستوى هي الكلمة والبحث عن أصلها وصيغتها ووزنها الصرفي وحروفها الأصلية والزائدة، ويدرس الكلمة تحت اسم "المورفيم" الذي يشير إلى أصغر وحدة لغوية دالة على معنى، ويقسم المورفيم إلى نوعين: المورفيم الحر الذي يسمى بالجذر أو الأصل، ويكون مستقلاً بنفسه مثل ك ت ب في "كتب"، والمورفيم المقيد الذي يستخدم مع غيره في الكلمة ولا يكون مستقلاً، مثل السوابق والواحق على الكلمة، ومثاله الضمائر المتصلة ك " التاء" في كَتَبْتُ وغيرها.

ج- المستوى التركيبي أو النحوي: ويتعلق البحث في هذا المستوى بمجال النحو في أي لغة من اللغات، يقوم أساساً على دراسة الجملة وموضع الكلمات فيها وكيفية ترتيبها، وتتم الدراسة في هذا الجانب أيضاً من خلال تحليل الجملة وفق ما تقدم ببيان العناصر المباشرة وغير المباشرة فيها وأثرها في المعنى.

د- المستوى الدلالي المعجمي: وهذا المستوى في التحليل اللساني اللغوي يعنى بدراسة المعاني ودلالة المفردات والكلمات والتراكيب، أي الجانب الإفرادي والتركيب، ويدخل في هذا المجال دراسة مجموعة مواضيع كنظرية الحقول الدلالية، وموضوع تحديد العلاقات بين الألفاظ والمعاني من الترادف والتلازم والاشتراك، والكلية والجزئية، والتضاد، والاشتغال والاقتضاء.

ثانياً: الدعوة إلى تطبيق اللسانيات المعاصرة في الدراسات القرآنية وحكمها.

تقدم الكلام على أن البحث اللساني قد شمل عدة مجالات وعلوم سواء كانت علوم إنسانية واجتماعية أو حتى علوماً تجريبية، ولما كانت العلوم الشرعية بتلك الأهمية وكان أصلها اللسان العربي، وكانت اللغة العربية لغة القرآن لم تكن هاته العلوم في معزل عن الدراسات اللسانية، فقد دعا كثير من المفكرين والباحثين الإسلاميين خاصة الذين تأثروا بالمناهج الغربية إلى تطبيق هذا العلم على التفسير القرآني، ولقد نادى كثير من الحداثيين في القرن الماضي إلى توظيف المناهج المعاصرة والدراسات الحداثية في شتى الميادين وفي مختلف المجالات كسبيل وطريق للنهضة المنشودة والالتحاق بركب الأوروبيين في التقدم والتطور الاقتصادي والفكري، وكان مما دُعي إلى توظيفه على النص القرآني خاصة علم الألسنيات الحديثة، الذي دعا إليه خلق كثير من رواد الحداثة في العالم الإسلامي كمحمد أركون الذي يقول داعياً بشدة إلى ذلك: «من هذه الملحوظة ينبغي علينا بشكل مطلق أن نستخدم علم الألسنيات بكل مصطلحاته كمنهجية أولى لتحليل الخطاب القرآني، ينبغي أن نبقي داخل حدود هذه المنجية...»⁶، وكذلك محمد شحرور⁷ ونصر حامد أبو زيد وغيرهم، هؤلاء المفكرون لم يقتصر الأمر عندهم على مجرد الدعوة إلى توظيف اللسانيات، بل تعدوا إلى مرحلة توظيفها في تحليلهم لنصوص الكتاب الكريم وبشده، من ذلك قول أركون: «لقد شرعت في تطبيق إشكاليات ومناهج اللسانيات والسيميائيات منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي»⁸، فنتج عن ذلك تنوع في الآراء وتصادم في الأقوال بين مؤيد قابل لهذا وبين رافض له وممتنع، وفي هذه الجزئية سنتطرق إلى دعاوى توظيف اللسانيات في التفسير القرآني وآراء الباحثين فيه، وهذا ما أدى إلى بحث كثير من المفكرين فيما مدى تطبيق هذا المنهج المعاصر على النص القرآني فتبلورت أقوال وتشكلت مذاهب في حكم توظيفها ويمكن إجمالها على النحو التالي:

1. الراضون لتطبيق علم اللسانيات على القرآن الكريم وأدلتهم:

يعترض كثير من الدارسين خاصة التراثيون أصحاب المنهج الأثري على توظيف وإقحام علم اللسانيات في تفسير القرآن الكريم ويرفضون أو قل يتحفظون على الأقل، وأبرز من منع ذلك الباحث السوري عبد الرحمن الحاج، والمغربي طه عبد الرحمن⁹ وغيرهما ومجمل ما يستدل به هو:

- منطلق علم اللسانيات العلوم التجريبية فقد نشأ من رحم الفلسفة المادية وفي خضم إخضاع اللغة لمحك البحث والنقد التجريبيين، لذلك لم تنفك اللسانيات عن الخلفية الأيديولوجية لأصحابها وإن ادعوا الحيادية¹⁰.

- دعوى توظيف اللسانيات على القرآن الكريم دعوى حدائية بالأصل، ومشربها ومستقاهها إخضاع النص القرآني لمحك المحاكمة بالتحليل والنقد اقتداءً بالغربيين من المستشرقين وغيرهم الذين قرأوا المسيحية واليهودية قراءة معاصرة دفعت بهم إلى الانسلاخ عنها ونبذها¹¹.

- تطبيق المنهج اللساني على التفسير القرآني له آثار وخيمة، لما لللسانيات ومناهجها وفروعها التي تفرعت عنها من بعض السمات والمبادئ المصادمة لأصول الإسلام والمسلمين، فالمنهج بنيوية مثلاً قائمة على فكرة موت المؤلف وعدم اعتباره، والمنهج التأويلي مبني على فتح الدلالات والفهوم على مصراعيها دون ضوابط تضبطه أو الزامات تُلزمه¹².

- علم اللسانيات أحد العلوم النقدية الغربية، ظهر مع ديسوسير، وتبلور في رحم المذاهب والمدارس الأوروبية والأمريكية، وإن حاول بعض الباحثين تعريب جذوره وعزوها إلى الفكر العربي والإسلامي، وتتضح ملامح غربيته في جذور آرائه ومنطلقاته، إنها نتاج الفلسفة والتيارات الفكرية الغربية، فكيف توظف في تفسير كلام الله سبحانه ولا علاقة تربط بينهما؟ (اللسانيات غربي بشري، والقرآن إلهي المصدر ولسان عربي).

2. الموافقون الداعون إلى توظيف اللسانيات على التفسير وأدلتهم:

لقد قبل كثير من الدارسين والباحثين فكرة تطبيق المناهج اللسانية على القرآن الكريم، وإليه ذهب طه جابر العلواني، وأحمد العبادي ومصطفى تاج الدين والذين كان مُنطلقهم القول بنسبية الدرس التفسيري وتحول مناهجه طبقاً للظروف التاريخية للمفسر وبيئته¹³، ولذلك لا يضر أن ننتهج مناهج تفسيرية جديدة يفهم من خلالها الوحي الثابت، والملاحظ أن هذا القول - توظيف اللسانيات في التفسير - قد اعتمد كثيراً، خاصة من الباحثين الأكاديميين المشتغلين بالبحث في اللسانيات على مختلف تخصصاتها ومناهجها في مختلف الجامعات والكليات الأدبية العربية، فقد كتبت مذكرات ومقالات علمية كثيرة جداً من ذلك:

- سورة المرسلات دراسة في لسانيات النص، فاتن خليل حجازي، مجلة الخدمة للاستشارات البحثية، كلية الآداب جامعة المنوفية، مصر 2010م.

- البناء التداولي للممارسة التفسيرية قراءة في إمكانية التحقق، الرحموني بومنفاش، مجلة الدراسات الأدبية والفكرية العدد 5، 2015م، الجزائر.

- بنية الخطاب السردي في سورة يوسف دراسة سيميائية، دفة بلقاسم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة.

3. تحرير القول في توظيف اللسانيات على تفسير القرآن الكريم:

إذا نظرنا إلى ماهية علم اللسانيات وحقيقته ثم جذوره في التراث العربي والإسلامي، وتمعنا في آراء الدارسين والباحثين بين الذين قبلوا توظيفها على تفسير القرآن الكريم وسياق تقريرهم، أو الذين امتنعوا ورفضوا وسياق رفضهم يمكن القول بأنه لا مانع من توظيف هذا العلم والاستفادة منه في الدرس التفسيري، وذلك لما يلي:

- لأن جل مسائل هذا العلم التي تُشكّل ماهيته وحقيقته تتقاطع وتتلاقى مع التفسير القرآني وبيان ذلك على النحو التالي:

أولاً: لقد تقدم الكلام على نشأة علم اللسانيات وأن لها جذورها في التراث العربي عند علماء اللغة، بل وجذورها ممتدة حتى في العلوم الشرعية، التي أصل لها كثير من علماء الأصول والتفسير، فمسائل مستوي التحليل الصوتي مثلاً موجودة عند علماء القراءات والتجويد، الذين اهتموا بدراسة مخارج الحروف وصفاتها وكيفية نطقها، وسبل ووسائل تعليمها، وكتب المعاجم اللغوية والأشبه والنظائر في التفسير أو دلالات الألفاظ في أصول الفقه مبنوثة فيها كثير من مسائل المستوى المعجمي الدلالي الذي يعتبر أحد مرتكزات التحليل الألسني المهتم بجانب المعنى، وهلم جرأً على كل مسائل اللسانيات التي أكثرها مستمدة - أو قل مكيفة - من البحث اللغوي والشرعي عند المسلمين، وعليه يمكن اعتبار علم اللسانيات علماً لغوياً، واختياره لغوياً لا شرعياً مع وجود بعض مسائله في العلوم الشرعية بسبب كونه أكثر شَبَهًا وأقرب إلى اللغة منه إلى العلوم الإسلامية، ولأن تلك المعارف الإسلامية أصلها في البحث اللغوي أساساً وإن زاد مُجْتَهَدُو الشريعة عليها مسائل وفرعوا فروعا عنها، فَرُد الأمر إلى اللغة أساساً.

ثانياً: إذا تقرر نسبة علم اللسانيات إلى علم اللغة بعد بيان جذوره العربية وتكيفه مع الدرس اللغوي العربي، وتصفيه شوائبه فيما يخالف (وسياقي الكلام بإيضاح في شروط توظيف اللسانيات في التفسير) وعرفنا أن اللغة أحد المصادر المعتمدة عند المفسرين في التفسير، أدركنا العلاقة التي يمكن ربطها بين اللسانيات وعلم التفسير وهي اعتبار اللسانيات أحد العلوم الخادمة له، واستنتجنا أن توظيف اللسانيات المعاصرة في التفسير هو بمثابة التفسير اللغوي الذي قبله المتقدمون بشروط.

- ثم إذا نظرنا إلى المفكرين الذين منعوا توظيف اللسانيات على التفسير نجدهم قد صوبوا نظرهم أثناء الحكم بالمنع على الدراسات الحداثيّة، أي التوظيف الأيديولوجي واللابريئ لعلم اللسانيات في التفسير، ولذلك نجد مثلاً الباحث عبد الرحمن الحاج لم يمنع توظيف هذا العلم على التفسير إذا وظف بطريقة مهذبة والتزم بالضوابط الشرعية¹⁴.

- وتوظيف اللسانيات في التفسير بمثابة التفسير بالرأي، وهو إما أن يكون محموداً أو مذموماً بحسب انضباطه بالضوابط التفسيرية المقررة في كتب علوم القرآن والتي ستقرر فيما بعد.

ثالثاً: ضوابط توظيف اللسانيات في التفسير القرآني

تقدم الكلام على أن المقرر هو إمكانية توظيف علم اللسانيات في التفسير القرآني لما ظهر من الأدلة على ذلك، وإن اختيار القول بإمكانية الاستفادة من هذا العلم لا يعني فتح الباب على مصراعيه وإنما يجب أن ينضبط بضوابط تضبطه وترسم له حدوده الممكنة، لأن توظيف هذا العلم مرتبط أساساً بكلام الله تعالى الوحي الثابت اللامتغير فينبغي أخذ الحيطة والحذر، ففي هاته الجزئية سنتطرق إلى ضوابط توظيف اللسانيات في التفسير القرآني وحدوده.

1. توفر شروط المفسر الشرعي في المفسر اللساني.

ينبغي على موظف علم اللسانيات على التفسير القرآني أن يكون ممن توفرت فيه شروط كل المفسر المشهورة والمذكورة في كتب علوم القرآن من الإحاطة بعلوم الآلة من اللغة العربية وفروعها إلى علوم القرآن مرورا بعلوم والتفسير وأصوله وقواعده، مع معرفته أيضا بالسنة والسيره النبوية...، وهذا يتصور في من اقتحم علم التفسير بمفرده، أما في هذا الزمان فالغالب على المفسرين إما الرجوع إلى الدواوين التي ألفت أو الانضمام إلى المؤسسات التي أنشأت والانخراط تحت مشاريع علمية يشترك فيها باحثون تجمع تخصصات متنوعة، فعلى الوجه الثاني¹⁵ (أن يكون المفسر اللساني في عمل مشترك) ينبغي أن يكون صحيح الاعتقاد، وذلك لأن عقيدة المرء مؤثرة فيه سواء شعر أم لم يشعر، وسواء حاول الانفكاك عنها أو لم يحاول، لذلك نجد كثيرا ما تحمل العقيدة أصحابها على تحريف النصوص والبتر في نقل الأخبار، فإذا صنف أحدهم كتابا في التفسير أوّل الآيات إلى ما يوافق عقيدته، كما ينبغي عليه أن يلتزم أيضا بالعلمية وأن يتجرد من الأهواء لأن لا يحيد عن الصواب في البحث والنظر، ولذلك من منع توظيف اللسانيات في التفسير إنما حكم بسبب توظيف الحداثيين لها و الذين لم يتحلوا بالموضوعية والأمانة العلمية.

2. الانضباط بضوابط التفسير اللغوي

يعرف التفسير اللغوي بأنه بيان معاني القرآن الكريم بما ورد عن العرب¹⁶، وهو أحد أنواع التفاسير الشرعية، وقد اتفق الخلق قاطبة على جواز توظيفه في التفسير لأن القرآن الكريم نزل بلغة قوم هم العرب، ولقد قرّر فيما تقدم أنه يمكن اعتبار علم اللسانيات من العلوم اللغوية، وتوظيفها على التفسير القرآني نوع من التفسير اللغوي، وهذا الأخير وإن كانت لغة القرآن عربية إلا أن السلف والعلماء من بعدهم جعلوا له ضوابط تضبطه، هي نفسها سئستدعى في التفسير الألسني، وهذه الضوابط هي:

- أن لا يعتمد على اللغة دون غيرها من أصول التفسير: وهذا الشرط واضح جلي إذ أصل اللغة العربية في التفسير القرآني يعتبر واحدا من أصول كثيرة في التفسير ولا إشكال في ذلك، إنما الأشكال في أن تختزل الأصول الأخرى فتلغى أو تؤخر في مقابل هذا النوع من أنواع التفسير¹⁷، وهذا الشرط إذا طبق على توظيف اللسانيات كان رفضا لكلام بعض الحداثيين الذين يشترطون اللسانيات فقط في التفسير، أو تقديمها بشكل أساسي كما دعا إليه أركون¹⁸.

- أن يكون المعنى المفسر به صحيحا له أصل في لغة العرب: المراد بهذا الشرط أن يكون اللفظ المفسر لألفاظ القرآن وارداً عن العرب، ليس بحادث ولا شاذ في لغتهم وهذا الضابط يفيد في ردّ التفاسير التي يظهر عليها الصبغة اللغوية، وعند التحقيق يظهر أنها لا تمتّ للغة العربية بصلة¹⁹، والتي منها الاصطلاحات الحادثة التي تنسب للعرب وهي غير كذلك، أو قد تكون من مصطلحات الأمم غير الإسلامية فيجتهد الذي يتناول تفسير الآيات في التوفيق بينها وبين ما جاء في القرآن، أو تكون المصطلحات من العرب إلا أنها شاذة مطروحة لا يعول عليها حتى شعراً فضلا أن يعول عليها في القرآن. إذا فكل تفسير ليس من أصل العرب فهو مردود مرفوض.

- أن لا يقصر معنى الآية عليها: إذا تعددت معاني الآية وكان هناك ما يدعو إلى تقديم قول على غيره، فلا إشكال في ذلك لأنه من باب تقديم الأولى، لأن ذلك التقديم ليس فيه إلغاء للأقوال الأخرى المحتملة، أما أن تتعدد الاحتمالات والمعاني ويقصر الجميع على احتمال ومعنى واحد فهذا مرفوض تماما، بل هو من التحكم في البحث العلمي²⁰، ولذلك ينبغي على المفسر اللساني إذا تعددت احتمالات معاني الآية عنده

أو ظهر له معنى على آخر بوجه ما من أوجه صحة معناه أن لا يجعل ما رآه وما أداه إليه اجتهاده حقا مطلقا وحيدا لا يخالف، وأن يختزل المعاني الأخرى في رأيه فقط²¹.

وعليه يمكن إجراء هذه الضوابط على شروط توظيف الألسنيات في التفسير لما تقدم الكلام على أن الاتكاء على اللسانيات في التفسير في الغالب نوع من أنواع التفسير اللغوي.

3. غربة اللسانيات في التفسير من ما يصادم قواعد الشريعة وأصول التفسير

تتصادم بعض قواعد اللسانيات ومبادئها مع الشريعة الإسلامية وثوابت الدين عند المسلمين عامة والمتخصصين في التفسير خاصة، ويزداد التصادم إذا ما يتعلق الأمر ببناء المعاني والدلالات، ولا شك أن مثل هذه المبادئ المصادمة للأصول الإسلام وحقايقه لا يمكن وأن توظف في التفسير القرآني، لأن القرآن والتفسير لا ينفكان عن تلك الحقائق.

ومما يذكر كمثال لما يجب أن يغربل من اللسانيات إذا ما وظفت على التفسير القرآني ما يعبر اللسانيون عنه بمبدأ المحايثة²²، أو قضية موت المؤلف²³، لما فيهما من رفض لكثير من أصول التفسير المتفق عليها ورفع للقدسية على النص القرآني الذي تقدس بأصله ومصدره، فمبدأ المحايثة يلغي أصل الرجوع إلى السنة النبوية والاعتماد على علم أسباب النزول ويجعل صلب البحث هو تفسير القرآن بالقرآن فقط، وفكرة موت المؤلف وإقصاءه سبيل لإزالة ما أَرَادَهُ اللهُ لعباده من في القرآن ومن القرآن لأنها تتكئ على إهمال دور صاحب العمل.

ولأن كانت هاته المبادئ ومثيلاتها مرفوضة حتى في الدرس اللغوي الأدبي من قبل كثير من الباحثين ففي الكتاب المطهر كلام رب العالمين أولى بالرفض والامتناع²⁴.

4. التكامل بين نتائج اللسانيات والموروث التفسيري الشرعي

إن توظيف علم اللسانيات في التفسير يستهدف المعنى أساسا، وإن ما قد ينتج من دلالات ومعاني تتفرع عن الاستثمار لهذا العم ينبغي أن تتكامل معرفيا مع نتائج التفسير الشرعي القائم على بقية الأصول، والعلاقة بين نتائج التفسيرين لا تخلوا من احتمالات ثلاث.

إما أن توافق ما أتفق عليه من التفسير بالمأثور (بالقرآن أو بالسنة أو بأقوال السلف)، وهذا لا نزاع في قبوله، بل رفضه رفض للتفسير بالمأثور، فإن قيل فما وجه فائدة علم اللسانيات إذا في هذه الحالة طالما تُوصَلُ إلى دلالات مُتوصل إليها؟ قيل بأن فائدتها تنوع أصول الاستدلال وطرق الاستنباط وبيان إعجاز القرآن، كيف لا وقد تتنوع المصادر والطرق ويُتوصَلُ إلى نفس النتائج.

أو أن تخالف نتائج توظيف اللسانيات ما اتفق عليه وما ورد في التفسير بالمأثور، وهذا على نوعين أحدهما أن لا تصادم التفسير بالمأثور ولا أصول الشريعة وقواعدها فهذه تقبل إذ هي من باب تنوع الأقوال التفسيرية، وثانيها مصادمة المتفق عليه مما نقل أو مصادمتها لقواعد الشريعة وهذه مرفوضة.

أو أن توافق قولاً من الأقوال المختلف فيها في التفسير بالمأثور وهذه تقبل، فإن قيل هل يتسعان باللسانيات في الترجيح بين الأقوال التفسيرية المختلفة؟ أجيب بأن حكم هذا تبع لحكم الترجيح بين الأقوال التفسيرية بالاعتماد على اللغة العربية لما تقرر من اعتبار اللسانيات فرعاً عن فروع اللغة.

خاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن أن يقال أنه قد تُوصَلُ إلى النتائج التالية:

- يعتبر علم اللسانيات علما منبثقا من الغرب، تشكلت معالمه وترتبت مسائله على يد اللغوي السويسري دوسوسير، ويشكل علماً مستقلاً بذاته في أواسط القرن التاسع عشر ميلادي.

- تمتد جذور علم اللسانيات إلى مئات القرون، منذ عهد الإغريق واليونان مروراً بعهد العرب والمسلمين، تشكل في أول مراحلها لدراسة اللغة واستنباط ما يتعلق بها من قواعد وقوانين تنظمها، ثم تطور بعد ذلك لتشكّل عديد المدارس الأوروبية والأمريكية إلى دراسة المعنى والدلالات فاعتبر المستوى الدلالي كأحد مستويات التحليل الألسني.

- لقد دعا كثير من رواد الحداثة كمحمد أركون ومحمد شحرور ونصر حامد أبو زيد إلى توظيف علم اللسانيات في التفسير القرآني طمعاً في النهضة المنشودة والتطور العلمي والتقدم الفكري.

- دعوى الحداثيين إلى توظيف علم اللسانيات انبثقت منها آراء ومذاهب، بين قابل لتوظيف هذا العلم على تفسير القرآن الكريم وبين رافض لذلك وممتنع.

- جل من منع توظيف علم اللسانيات على القرآن الكريم نظر إلى صنيع الحداثيين والتوظيف الإيديولوجي لها، ولذلك كتحرير لمسألة توظيف اللسانيات على التفسير تُوصّل إلى أنه توظيف علم اللسانيات على التفسير القرآني إذا كان منضبطاً بالضوابط العلمية وأخلاقيات البحث العلمي، لأن أصل مسائل هذا العلم جذورها ممتدة عند علماء اللغة العربية وعلماء الشريعة، خاصة علماء أصول الفقه والتفسير الذين اهتموا بدلالات الألفاظ وطرق تحليل الخطاب، كما يمكن الاعتماد على جواز توظيفها باعتبارها فرعاً من فروع علوم اللغة.

- يعتبر الاستثمار في علم اللسانيات في التفسير بمثابة التفسير بالرأي، فهو إما أن يكون من الرأي المحمود أو يكون من قبيل التفسير بالرأي المذموم، وذلك بحسب انضباطه بضوابط التفسير المقررة في كتب علوم القرآن.

- من ضوابط توظيف علم اللسانيات في التفسير القرآني الانضباط بنفس ضوابط التفسير اللغوي، وذلك لاعتبار اللسانيات فرعاً من فروع اللغة، ومجمل هذه الضوابط هي أن لا يعتمد إلا على المشهور من اللغة دون الشاذ، وأن يكون المُفسّر به صحيحاً عند العرب، مع أن لا يُقصر معنى الآية على ما تُوصّل إليه إذا ما تعددت المعاني.

- كما من ضوابط توظيف علم الألسنيات غربة مسائل هذا العلم ومبادئه مما يصادم قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها، مثل ما يتعلق بمبدأ الحيثية وقضية موت المؤلف وغيرها، هاته المبادئ التي رفضت حتى عند دراسة النص الأدبي فضلاً على أن تقبل في تفسير كلام رب العالمين.

- التكامل المعرفي بين نتائج اللسانيات والموروث التفسيري الشرعي ضابط من ضوابط توظيف هذا العلم على التفسير، وذلك لأن نتائج توظيف اللسانيات إما أن توافق ما اتفق عليه من التفسير بالمأثور فتقبل ويكون مما تعددت سبل الوصول إلى المعنى، أو تخالف نتائج اللسانيات ما اتفق عليه دون مصادمة له فتقبل هذا قبيل تعدد المعنى دون تعارض، أو تخالف نتائج اللسانيات المتفق عليه وتصادمه وهذه ترفض ولا تقبل.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ط 2، 2005م
- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات دار القصبه، الجزائر، ط 2، 2008 م.
- زكريا عريف، مشروعية توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم دراسة لأراء الراضين والمؤيدين، مركز تفسير للدراسات القرآنية.
- سعيد بنكراد، السيميائيات وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر، سوريا، ط 3، 2012م.
- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2002م.
- عبد الرحمن الحاج، المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، منشورات الشبكة الإسلامية، 2002م.
- عبد الرحمن الحاج، ما الحاجة إلى اللسانيات، جريدة الحياة اللندنية، لندن، الطبعة الدولية، عدد 2006/07/29م.
- لشخب زين الدين، المناهج السانية وأثرها في الدراسات القرآنية المعاصرة، مذكرة لنيل درجة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم العلوم الإسلامية، أدرار، 2017م.
- محمد أركون، التشكيل البشري للإسلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2013م.
- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2001م.
- محمد شحرور، الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة -، دار الأهالي، دمشق، 1990م.
- محمد يونس، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2004م.
- مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط 1، 2010م.
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، ط 3، 2000 م.
- منال إسماعيل مرعي، تأويلية موت المؤلف متاخمة معرفية نقدية لأطروحة رولات بارت، مجلة الاستغراب، لبنان، العدد 21، المجلد 5، 31 أكتوبر 2020م.
- نصر الدين بن زروق، محاضرات في اللسانيات العامة، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط 1، 2011م.

الهوامش:

- ¹ - ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات دار القصبه، الجزائر، طبعة 2، 2008 م، ص 9- 10، ومحمد يونس، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2004م، ص 9، نصر الدين بن زروق، محاضرات في اللسانيات العامة، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط 1، 2011م، ص 6.
² - ينظر: المصدر نفسه، ص 6.
³ - ينظر: أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، طبعة 02، 2005م، ص 1 إلى 12، ومدخل إلى اللسانيات العامة، ص 9.
⁴ - ينظر: المصدر نفسه ص 1 إلى 12، ص 59 إلى ص 98.
⁵ - ينظر: محاضرات في اللسانيات، ص 24، ص 62، ص 74، ص 102.
⁶ - محمد أركون، التشكيل البشري للإسلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، طبعة 01، 2013م، ص 161-162.
⁷ - ينظر: محمد شحرور الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة-، دار الأهالي، دمشق، 1990م، ص 20.
⁸ - محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2001م، ص 5.
⁹ - ينظر: زكريا عريف، مشروعية توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم دراسة لأراء الراضين والمؤيدين، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ص 14.
¹⁰ - ينظر: المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، عبد الرحمن الحاج، منشورات الشبكة الإسلامية، 2002م.
¹¹ - ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2002م، ص 181.

- 12- ينظر: لشخب زين الدين، المناهج السانية وأثرها في الدراسات القرآنية المعاصرة، مذكرة لنيل درجة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم العلوم الإسلامية، أدرار، 2017م، ص 110-125.
- 13- ينظر: مشروعية توظيف اللسانيات في التفسير، ص 20.
- 14- ينظر: عبد الرحمن الحاج ما الحاجة إلى اللسانيات، جريدة الحياة اللندنية، لندن، الطبعة الدولية، عدد 2006/07/29م.
- 15- ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، ط 3، 2000م، ص 340.
- 16- ينظر: مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط 1، 2010م، ص 38.
- 17- ينظر: المصدر نفسه، ص 633.
- 18- ينظر: يذكر أركون أنه ينبغي أن يتكأ على اللسانيات بدرجة كبية لفهم القرآن بل يتعدى ذلك في مواضع إلى أنه يمكن الاعتماد عليها فقط، ينظر القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 118.
- 19- ينظر: التفسير اللغوي، ص 617.
- 20- ينظر: المرجع نفسه، ص 626.
- 21- ينظر: المرجع نفسه، ص 633-634.
- 22- ينظر: يقصد بمبدأ المحايثة دراسة النص الأدبي دراسة داخلية مجردة عن العوامل الخارجية المؤثرة والمحيط بها حتى يتوصل إلى دراسة علمية خالية من التأثيرات الجانبية. ينظر: سعيد بنكراد، السيميائيات وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر، سوريا، ط 3، 2012م، ص 50.
- 23- يقصد بنظرية موت المؤلف استبعاد دور كاتب النص في العمل ودراسة النص دراسة خالية من اعتباره، ينظر: منال إسماعيل مرعي، تأويلية موت المؤلف متاخمة معرفية نقدية لأطروحة رولات بارت، مجلة الاستغراب، ص 228.
- 24- تعرضت مبدأ المحايثة وقضية موت المؤلف إلى النقد والرفض من الدارسين اللسانيين، من ذلك نقد عبد الله خضر حمد في كتاب مناهج النقد الأدبي، وأحمد يوسف في كتاب القراءة النسقية (سلطة البنية وهم المحايثة).